الفصل الاول
البنيوية-النظرية والمنهج المثالي التطبيقي

الفصل الاول
البنيوية-النظرية والمنهج المثالي التطبيقي

اولا: لغة الصوت واللغة المكتوبة في توظيف البنيوية

اذا ما اخذنا على محمل الجد كما يراد لنا التسليم به من اعتبار نيتشة هو اول من استبعد الميتافيزيقيا الفلسفية والمعرفية التي سادت قرونا طويلة قبله. وانه – نيتشة– يمثل التمفصل الفلسفي المعرفي الوحيد الذي الغى كل ما سبقه من ارث الميتافيزيقيا باعتبارها لغوا غاطسا في مستنقع العدمية والفوضوية غير العقلانية ممثلة باشكالية اللغة. هذا الرأي من وجهة نظرنا تضخيم فلسفي واستنباط لا تاريخي ولا معرفي دقيق او صحيح. اذ يوجد هناك من وضع وفهم نيتشة فهما قاصرا منحازا على حساب الحقيقة. صنّف هذا البعض هيدجر كفيلسوف ميتافيزيقي وهو الوجودي المعروف بآرائه المعاصرة التي هاجم فيها الميتافيزيقيا مطالبا انهاء هيمنتها لقرون طويلة. واعتبر هيدجر أن نيتشة نفسه هو آخر المتافيزقيين. كما هاجم هيدجر البنيوية معتبرا اياها من مخلفات الميتافيزيقيا التي وصلتنا وتم بعث الحياة فيها. ومثله فعل جاك دريدا في اعتباره البنيوية برمتها ضربا جديدا من الميتافيزيقيا على حد اقرار الباحث احمد عقلة العنزي في بحث له نتناوله لاحقا.الى ذلك ذهب ايضا البعض ممن اعتبر الحداثة وما بعد الحداثة التي خرجت البنيوية من تحت عباءتيهما واعتبروهما مرحلتين متداخلتين من مراحل العقم الفكري الفلسفي الفوضوي العدمي. وهذه ايضا مغالاة في الحكم والاستنتاج غير العقلاني والتاريخي الصحيح. فمن المتعذر قبول امكانية الغاء معطيات ومنجزات قيم الحداثة وما بعد الحداثة انهما كانتا عبثا معرفيا واشكالية لغوية بالاساس لاغير. جاءت البنيوية الغاءاً وتجاوزا مشروعا لهما وحتمية تاريخية تطورية اقصتهما.

من المعروف رغم معطيات نيتشة الفلسفية اللامعة الا ان الكثير من مؤرخي الفلسفة وبعض الفلاسفة المعاصرين يذهبون الى ان فلسفة نيتشة لم تقد الموروث الفلسفي السابق عليه سوى نحو العبث والعدمية والجنون والاغتراب لا اكثر من ذلك. كما لم يفتح نيتشة طريقا سالكا امام ظهور البنيوية او غيرها من مدارس المعرفة النقدية الحديثة. وخير دليل على ذلك ان سارتر في بنائه الوجودية الحديثة بمرتكزاتها الثلاث الوجود لذاته او من اجل ذاته والوجود في ذاته – العدم – الحرية. فهو اخذ اي سارتر اكثر من فكرة فلسفية سابقه عليه فقد اخذ عن سورين كيركارد وشوبنهاور وغيرهما بنفس الوقت الذي اخذ عن هيدجر ونيتشة. كما هو الحال بالعود الابدي لنيتشة المستقاة عن هيراقليطس وقبله فلاسفة الاغريق القدماء منذ القرن السادس ق. م. والعود الابدي لنيتشة لم تكن فتحا تجديديا غير مسبوق في الفلسفة. وان كان تمسك نيتشة به شديدا. الااننا نجد ارهاصات العود الابدي في كتابات هايني وهولدرين وبلانكي وجويو وهناك اشارات غامضة للعود الابدي لدى كلا من بايرون وسبنسر.

وعلى خلاف الذين التقطوا الدرة الثمينة والفتح المعرفي الفلسفي التجديدي الفريد لنيتشة كما يفهمه ويبشر به الباحث احمد العنزي. فهو احد الذين يعتبرون نيتشة الملهم الروحي للفلاسفة المعاصرين في سعيهم للقضاء على الميتافيزيقيا والهراء الفلسفي

المتعالق معها. وان افكار نيتشة ايضا حسب هؤلاء مهدت لظهور كتابات اقطاب البنيوية امثال ميشيل فوكو وليفي شتراوس ود ي سوسير ورلان بارت وجاك دريدا وجيل ديلوز والتوسير في اشتغالاتهم التخصصية المنوعة على ضروب موضوعات البنيوية المختلفة. ونكرر ونقول ان هذه المصادرات والاستنباطات غير صحيحة ولا تكتسب الموضوعية في اعتبار واعتماد سذاجة تحليلية ان كل من اتيح له قراءة نيتشة من فلاسفة البنيوية اصبح تلميذا له.لا تقاس الامور بهذه البساطة.

يذكر الباحث احمد العنزي ان نيتشة:(اعتبر اشكالية القيم الميتافيزيقية سوى لغو واشكالية لغوية بامتياز. لذلك اعطى نيتشة اللغة اهمية مميزة ومكانة مركزية. وهو ما تابعه هيدجر الذي اعتبر اللغة مسكن او بيت الوجود. فلم يتبق اذن من رواسب الميتافيزيقيا سوى هذا المسكن الصغير اي اللغة)[1].

لايوجد اي سند فلسفي تاريخي معرفي يؤكد صحة ان اللغة كانت ميزة وبؤرة مركزية في فلسفة نيتشة. ولم يسبق لاحد ان ادعى ميتافيزيقيا اللغة هي آخر المتبقي من رواسب الميتافيزيقيا الفلسفية كما مر بنا عند الباحث. لا في كتابات نيتشة وافكاره الفلسفية ولا في كتابات من اشادوا بميراثه الفلسفي واستاذيته لهم من رواد فلاسفة البنيوية امثال سوسير او شتراوس او فوكو او بارت او التوسير الذي هو اكثرهم مغالاة في التطرف البنيوي المثالي التجريدي التهويمي في محاولة تطويعه الوقائع التاريخية والسرديات االكبرى والموضوعات المعرفية قسرا لمنطق الفوضى الفكرية باسم الاخلاص للبنيوية – يراجع تفاصيل ذلك في موضوعة التوسير ومحاولته البائسة في الاجهاز على كتاب رأس المال من ضمن موضوعات الفصل الاول من هذا الكتاب -.

ولم يذهب احد من هؤلاء الى اعتبار اللغة الأرث الاخير المتبقي من رواسب الميتافيزيقيا. اللغة التواصلية التداولية مرتكز ووسيلة اعتماد ظهور البنيوية في جميع ونواحي اشتغالاتها في قضايا الانثروبولوجيا والتاريخ وعلم النفس والادب والاساطير والسرديات العامة.

مع كل هذا نجد من اعتبر اللغة الارث الاخير المتبقي من رواسب الميتافيزيقيا بخلاف المنطق العلمي الفلسفي التاريخي الذي يشير باطلاق انه لولا اللغة لما كانت البنيوية ولا غيرها من المعارف الانسانية. وفي البدء كانت الكلمة كما وردت في اللاهوت.

ام علينا فهم الامر بالمعكوس كما يرغب الباحث ان البنيوية كمصطلح غائم يتقدم اللغة بدلا من اعلائه شان اللغة – وهذا هو جوهر ما نادت وجاءت به البنيوية في جميع معالجاتها في فضاءات المعرفة – تصبح البنيوية هي تحطيم هيكلية النسق اللغوي الشكلاني والمضموني. ام بالعكس ان اللغة متقدمة على البنيوية كنظرية ومنهج وجدت البنيوية في اللغة رمزية تاريخية غير مسبوقة غير مكتشفة. وملاذا مسعفا لها في معالجة قضايا وامور ومشاكل عالقة في الفلسفة والانثروبولوجيا والتاريخ وفي الايديولوجيا والسرديات الكبرى والادب وغيرها. هي من اختصاصات وميزات الرمزية اللغوية البنيوية والتداول المعرفي التواصلي في الاشتغال على وسيلة اللغة حصرا. ولم تكن

---

(1) د. احمد عقلة العنزي-البنيوية اللغوية عند دي سوسير-عالم الفكر الكويت-ع2 مج42 ص43.

البنيويـة ولا غيرهـا مـن نظريـات المعرفـة ان تظهـر وتكـون الا واحـدة مـن اختراعـات ومكتشفات مجـالات اللغـة. فاللغـة سـابقة معرفيـة ماديـةعلى النظريـة البنيويـة او غيرهـا من النظريات والمناهج الفلسفية. ولم تكن ولن تكون النظريات والمعارف المنهجية سابقة دالة تتقدم اللغة. اللغة ميراث تاريخي متطور لا ميتافيزيقي قبلي لابعدي في مختلف التوظيفات والاشـتغالات المعرفيـة الفكريـة والتاريخيـة القديمـة والمعاصـرة. اللغـة هـي المرمـوزات اللغويـة الدالـة التوصـيلية العـابرة للازمـان والتـاريخ وهـي المهمـاز القبلـي الـذي اعطـى الفتوحات النظرية المعرفية مغزى الظهور.

لا نعتقد ان الارث المعرفي العلمي والفلسفي علـة ميتافيزيقيتـه هو فـي اشكالية اللغـة وميتافيزيقتها بامتيـاز كمـا عبر عـن ذلك الباحث العنـزي. بل ذلـك الارث اشكاليته فكريـة عقليـة وليسـت لغويـة ولـيس بمعـزل عـن كـل المسـتلزمات الضـرورية التـي تحكـم المـادة والظـواهر والطبيعـة والانسـان والتـاريخ والمعـارف بـالتغيير المسـتمر والتطـور الزمنـي-الحضاري.

اي ضـيق افق ودوغماتيـة عميـاء ان نعتبـر جميـع القضـايا التـي شـغلت البشـرية قبـل ولادة البنيوية هي محض هراء ميتافيزيقي... ومـاذا وصـلنا من ارث هذه الحقول المعرفيـة التـي اعتمـدتها البنيويـة فـي النقد والتطـوير الجديـد المحتمـل.؟ وعلـى مـاذا طبقت مفاهيمهـا الفكريـة المنوعـة فـي المراجعـة ومحاولـة اعطـاء البـدائل لمـا اخفقت بـه الحداثـة ومـا بعـد الحداثة... ان جدل وحركة المادة والطبيعة والانسان والتاريخ يشير الى بداهة معرفية انه لا يمكن خلق قناعات جديدة وقراءات جديدة لميراث الانسانية بمعزل عن منهجية نقد ورفض او اعتماد بعض ما توارثته البشرية في هذه المجالات. والجديد يتخلق وينبثق دوما من رحم القديم. ان مشكلة البشرية ليس فـي اشكالية ميتافيزيقيـا اللغـة. وانمـا الاشـكالية فـي المنجـز البشري من معارف وافكار ونظريات يطالها التغيير الزمني التاريخي بالاضافة والتجاوز.

البنيوية نظرية ومنهج مراجعة فكرية واسلوب نقدي قابل للقبول والاخذ بـه فـي نفس وقت انـه قابـل للدحض وابطـال وتوقف فعالياتـه بحكم التطـور التـاريخي الزمنـي. وتمجيد البنيويـة ليس معنـاه غلـق الابـواب امـام بـروز تيـارات معرفيـة جديـدة لاحقـا لعل التفكيكيـة ومـنهج حفريـات اركيلوجيـا المعرفـة احداها. وكـذلك البنيويـة التكوينيـة التوليديـة التـي تقوم على التوفيقية هي واحدة من مناهج تطور البنيوية وتعدد اشتغالاتها.

يستبعد الباحث العنـزي – دكتـوراه فلسفة معاصـرة – ان يكـون للغـة غير الصـوتية اشتغالا مع شتراوس قائلا: (عندما نكون بصدد الحديث عن البنيوية كحركة علمية علينا ان نسجل اننا لم نعد في الحقيقة امام بنيويـة واحدة كمـا نـادى بهـا فردينـان دي سوسير 1857–1913 سرعان ما وجدت اصداء واسعة وانتشرت فـي ميـادين مختلفة وحقول اخرى غير اللغة)[1].

(1) المصدر السابق ص42.

ويضيف (اننا مع ليفي شتراوس 1908 – 2009 اصبحنا بصدد بنيوية انثروبولوجية اهتمت بدراسة حياة الانسان البدائي محاولة فك شفرة رموز الاساطير البدائية.... الخ.) [1]. البنيوية في تفرعاتها المختلفة في مواضيع لاتعتمد علوم اللغة واللسانيات هي الاخرى لم تكن اشتغالاتها خارج نطاق اللغة المكتوبة . بل خارج موضوعات دي سوسير في تناوله اللغة الصوتية والكلام الشفاهي.

وصف الباحث البنيوية بانها حركة علمية بعيدة عن اشتغالات واهتمامات اللغة.- يقصد هنا باللغة علم الاصوات واللسانيات اللغوية الصرف وهو لا يقصد هنا اللغة بمعناها المعجمي الشامل كتابة وقراءة. ولكن العلمية في اي منحى من ضروب التجريبية العلمية تكون خاصية اللغة كرمز تواصل تعريفي تداولي غير مستبعدة ولا تستغني عنها جميع العلوم الانسانية والطبيعية في نقل وتوثيق منجزاتها واضافاتها الجديدة.

ولو نحن القينا جانباً العلوم الانسانية الانثروبولوجيا والتاريخ وعلم الاجتماع والادب والسرديات والانساق الايديو لوجية...فهذه جميعا علوم توثيقية تقوم على رمزية اللغة التواصلية التداولية المكتوبة قبل كل شيء آخر.

وهذا الاعتماد او الواسطة اللغوية في نقل الافكار والمعارف وشكل اللغة يسبق الفكرة العلمية والمضمونية (الموضوع) التي تستوعبها اللغة كحامل دال تواصلي يتم عبر اللغة كاداة استقبال وتلقي في مرموزاتها واشاراتها المكتوبة المقروءة. وتجريد اللغة المكتوبة والمقروءة عن هذه العلوم والمواضيع والمعارف يصبح من المحال نقلها كمادة تلقي وتواصل معرفي وثقافي مع الاخرين. وبهذا المعنى المقارب يقول دي سوسير: (اللغة سابقة على الفكر بل هي تستوعبه وتحتويه كما يحتوي الكوب الماء.وهذا يعني ايضا عدم وجود شيء خارج اللغة. وحقيقة الفكرليست مادية. وانه ليس ثمة افكار مسبقة ولا شيء واضح المعالم قبل ظهور اللغة.) [2]. ان قول دي سوسير كما نسب اليه ان حقيقة الفكر ليست مادية خطأ منهجي باعتباره يعتمد المثالية في التفكيروهذا لايلزم غيره الاخذ به كمسلمات. كما نجده يحذر من اعتبار اللغة بعدية غير قبلية في انتاج المعارف الانسانية وهوما يدعم وجهة نظرنا التي نؤكد عليها. وتتقاطع تماما مع ماجاء على لسان دي سوسير في الاقتباس اعلاه في قوله": ليس ثمة افكار مسبقة ولا شيء واضح المعالم قبل ظهور اللغة.

في المقابل نجد العلوم الطبيعية العلمية الصرف التي تهتم بالانسان كجسد وروح وعقل ونفس هي الاخرى لايمكنها الاستغناء عن مرموزية التواصل المكتوب(اللغة) مع الاخرين اجتماعيا. حتى في علوم الرياضيات والهندسة والطب والكيمياء والفيزياء تكون فيها مرموزات اللغة تواصلية – سيميائية في شكل المعادلات وكتابة صياغة النظريات التي في الغالب عادة ما تكتب بغير اللغة الدارجة اجتماعيا. فهذه العلوم تكتب وتنقل مفاهيمها بلغة رمزية خاصة تسمى المعادلات الرياضية والفيزيائية والكيماوية كما هو معلوم.

---

(1) المصدر نفسه، ص44.

(2) المصدر السابق ص 51.

لا نعتقد هنا يبقى معنى مطلوب القول ان البنيوية علميا وبحثيا انتشرت خارج نطاق بنية اللغة الصوتية وعلوم اللسانيات كما بدأها واعتمدها دي سوسير. فهذه مسألة لا تحتاج كثيرا من النقاش اذ يتعذر دراسة كل موضوعات المعرفة بنيويا نظريا ومنهجيا بلغة الصوت والكلام الشفاهي المنقول فقط.

وعندما نأخذ شتراوس في الانثروبولوجيا البنيوية او التوسير في نقده السرديات الكبرى والانساق الايدولوجية القارة نجد من العسير المتعذر في هذه الموضوعات التاريخية والفلسفية نقل وتوصيل رؤى وافكار جديدة من غير اعتماد فك شفرات ورموز لغوية وصورية مكتوبة توارثتها اجيال. وهي رسومات وكتابات لغوية جيولوجية يتم دراستها وفق نظرية ومنهج البنيوية في حفريات المعرفة نجدها في مخلفات الانسان البدائي والقبائل وفي الاساطير والاديان وما تركوه لنا من اثار حضارية وثقافية قديمة جرى اكتشافها في احقاب تاريخية متلاحقة تقوم البنيوية بنقدها واعادة قراءتها.

على سبيل الاستشهاد كان من الصعب جدا دراسة الحقبة التاريخية الفرعونية من دون اعتماد الكتابة والنقوش والرسومات في اللغة الهيروغليفية القديمة لغة المدونات الحجرية والاثارية والحفريات لتلك الحضارة.

وقل مثل ذلك في اللغة المسمارية السومرية في تاريخ حضارة وادي الرافدين. وفي دراسة مخلفات واثار ولغات اية حضارة عالمية سادت على الارض في حقبة زمنية تاريخية معينة.

وللتوضيح في مثال على ذلك فقد لعبت الصورة والعلامات والرسومات البسيطة في المرحلة البدائية للبشرية دورا مهما في توصل الانسان اختراع الكتابة.

وتعبر عن ذلك الباحثة د.فاطمة بدر قائلة: (ان الصورة هي اول شيء لجأ اليه الانسان البدائي للتعبير عن نفسه وعن افكاره. فقد كانت الحروف الهجائية تشكل صور الاشياء والطيور والحيوانات المحيطة بالانسان الاول. فالصورة مخزونة في عقل الانسان الباطني ومحفورة في خياله ومصبوبة في تجاربه الذاتية لتعبر عن مكنوناته لانها تمثل وعيه الاول. فقد كانت الجماعات البشرية قبل اختراع الكتابة تقوم بمطابقة دوال العلامات وما تشير اليه وتوحد بين الشيء وصورته. لذا كان الانسان في العصر الحجري القديم عند رسمه للحيوان على الصخر يعتقد انه انتج حيوانا حقيقيا. ويذكر ليفي بريل في كتابه العقلية البدائية عن اعتقاد هندي احمر رأى باحثا يقوم بأعداد صور تخطيطية لمجموعة من الثيران البرية,بأن الباحث في عمله ذاك وضع الثيران البرية في كتابه لذا لم تعد عندهم ثيران منذ ذلك الحين)[1].ما اردناه في هذا المثال ان اللغة قرين الوجود البشري ولا لغة ولا معطيات لغوية خارج ثنائية الوجود-اللغة. الشيء الآخر ان اللغة في جميع مراحلها هي وجود عقلاني حتى في اشكالها البدائية في مثال الرجل الهندي الذي فهم اللغة فهما سحريا خرافيا فحدود فهمه الاسطوري هو تفكير عقلاني ابن مرحلته التاريخية البدائية.

وعندما نقول ان البنيوية في منهجها حفريات المعرفة تسعى لفك مرموزات الاساطير او بعض الرسومات النقشية الاثارية الحجرية وكذلك في المدونات التوثيقية التاريخية للاستدلال على معطيات معرفية غير مكتشفة فانها لاتعتمد في تنقيباتها غير اللغة

(1) د.فاطمة بدر/ الصورة في السرد الروائي والسرد السينمائي/ مجلة الاقلام العراقية العدد2 حزيران، 2010.

المكتوبة والمقروءة المتداولة وليست اللغة الصوتية او علوم اللسانيات. اللغة المكتوبة هي الوسيط والوسيلة المعرفية الوحيدة في نشر وتثبيت الجديد في مكتشفات وحفريات جيولوجيا المعرفة. ونقلها وتداولها على وفق منهجية واستدلالات جديدة غير مكتشفة من خلال التوظيف البنيوي البحثي.

ومن تناقضات الباحث العنزي في البنيوية الخلط بين البنيوية نظرية ومنهج نقدي لكافة الموضوعات التي تعنى بالانسان والطبيعة والتاريخ وعلم النفس وبعض العلوم الاخرى وبين اللغة المكتوبة المقروءة كاداة توصيل وتلقي وحيدة لتلك الموضوعات. يقول الباحث ص40: (المحاولة البنيوية من وجهة نظر جاك دريدا تقوم على مركزية الصوت واسبقية الكلام على الكتابة. وكذلك تكريس مركزية العقل والاصل الميتافيزيقي من خلال اللغة).

كما اشرنا سابقا لاتعتمد البنيوية في دراستها المعارف والموضوعات الانثروبولوجية والسرديات العامة وعلم النفس والطبيعة والتاريخ بالاعتماد على مركزية الصوت في اللغة واسبقية الكلام الشفاهي المنقول اجتماعيا على ثانوية اللغة المكتوبة التدوينية المقروءة.الا فقط عند دي سوسير في توظيفه اللغة الصوتية المنطوقة وآخرين من فلاسفة اللغة.

نعم بعض فلاسفة وباحثي وعلماء البنيوية اشتغلوا في مجال النقد الادبي والثقافي فقط على مركزية الصوت واللسانيات وليس لغة الكتابة في التواصل المعتاد. في مقدمتهم ياتي فينجغتشين ونعوم جاموسكي ودي سوسير. لكنهم لم يهملوا لغة الكتابة والقراءة في توضيح افكارهم الفلسفية.

الموضوعات الهامة الكبرى في الفكر والفلسفة لم يتم الاهتمام في دراستها ونقدها ومراجعتها منهجيا بنيويا في اعتماد مركزية العقل فقط. فمدارس الحداثة وخصوصا ما بعد الحداثة والبنيوية جميعا شككت بكل اليقينيات العلمية والتاريخية والسردية والفلسفية القارة طويلا ومن ضمنها التشكيك بهيمنة العقل والعلم. واعتبروا الكثير من الانجازات البشرية في تلك الموضوعات غير مقنعة وناقصة.كما اعتبروا كل نص في تلك الموضوعات غير بريء. بمعنى وجود غايات ودوافع سياسية مصلحية وراءها. واعتبروا ايضا تلقي وقراءة وتاويل اي نص مكتوب يحتاج قراءة نقدية مغايرة للسائد.

نؤكد للمرة الثانية استحالة التطبيق التجريبي للافكار في اعتماد بنيوية مركزية الصوت واسبقية الكلام على الكتابة اللغوية المجتمعية.وفي الدراسات التخصصية المعرفية باستثناء ما يتعلق بالادب والموسيقا والفنون. فالبنيوية كمنهج يشتغل على حفريات جيولوجيا البحث والمعرفة تكون لغة الكتابة التوصيلية التداولية مركزية في هذا النوع من الموضوعات والدراسات تتراجع فيها مركزية اللغة الصوتية التي هي تخصصي معرفي دقيق. امام الطموح السسيولوجي في المعرفة التي تبغيه البنيوية. بخاصة البنيوية الشكلانية التكوينية او التوليدية.

اذن ما المقصود قول الباحث تكريس الاصل الميتافيزيقي من خلال اللغة... واي لغة يقصدها الباحث... واي اصل ميتافيزيقي... !؟

اللغة وعاء للوجود البشري في جميع ظواهره وتمظهراته. ووسيط تواصل اجتماعي بشري ولم تكن اللغة ميتافيزيقية يوما ما. الموضوع الفلسفي من غير شكل اللغة كمضمون يمكن ان يكون ميتافيزيقيا. واللغة التواصلية اداة توصيل ونقل الموضوع ووعاء للافكار. واللغة حيادية بالنسبة لمضمون الموضوع. وهي الحيز الذي تصب فيه المعارف الانسانية. اللغة بالمعنى المجتمعي كاداة توصيل وتلقي تسبق الفكرة المعرفية او الموضوع او البحث النظري او التطبيقي وهي التأطير الشكلي الظاهري والموضوعي في المعرفة والسرد على السواء.

الدراسات الألسنية للادب فقط تؤكد – ظهور البنيوية التكوينية او التوليدية كحركة وكاتجاه او مدرسة نقدية في البحث اللغوي والنقد الادبي والثقافي وكذلك في علم الاجتماع والسرديات..الخ-.وتعتبر البنيوية التكوينية هي الابرز في مجال النقد الادبي.وتعتمد المبدا التوفيقي الذي يمزج مابين الجدل المادي والتفسير التاريخي الماركسي وبين الشكلانية البنيوية. في عملية توفيقية توليدية للافكار الجديدة او نقد القديم منها. وهذه تختلف عن البنيوية كنظرية تقوم على توظيف علوم اللغات الالسنية ولغة الصوت فقط. وتوضيح اكثر ياتي في مبحث اخر من هذا الفصل.

البنيوية نظرية ومنهج مثالي عند دي سوسير لا تقيم وزنا للتفسير المادي للاشياء والتاريخ. البنيوية الصوتية تروم لوي عنق الوقائع والموضوعات والفكر تحت وصاية مراجعتها المثالية النقدية المقطوعة الصلة التجريبية التطبيقية بما يتوجب ان تكون عليه تلك الموضوعات. البنيوية اللغوية الشكلانية استبدلت الفيض الميتافيزيقي في الفلسفة منذ فلاسفة الاغريق القدامى وصولا الى افلاطون وارسطو. وكذلك التخمة الميتافيزيقية في التفسير اللاهوتي للعصر الوسيط الى نوع من الفيض اللغوي الشكلاني الذي يعتمد اللغة منهج معالجة الموضوعات وقراءتها قراءة نقدية شكلانية جديدة. ولا تقر البنيوية الصوتيه ان اللغة وجود مادي سابق على الوجود الواقعي للاشياء والطبيعة والانسان فهذه جميعها مع اللغة وجود مادي سابق على اي نظرية او منهج او تفسير فلسفي. اللغة معطى عقلي اجتماعي تسبق اي تفسير او نظرية او منهج يتوخى نقد او اعادة صياغة او تفكيك للوقائع الموجودة باستقلالية موضوعية.

لا اعرف لماذا يتحفظ الباحث عن حسم مصطلح البنيوية على صفحات بحثه كاملة.. في ان تكون البنيوية حركة او اتجاه او مدرسة او نظرية او تياراً او منهجاً. ويعتبر الباحث التمييز في ان تكون البنيوية نظرية ام منهجا.. سؤال تقليدي يجد ليس من واجبه الاجابة عنه. هذا ما ورد في بحثه على لسانه ص 41.

ثم اذا كانت البنيوية باعتراف الباحث ربما تكون مدرسة نقدية في البحث اللغوي والنقد الادبي والثقافي... وفي موقع سا بق اشرنا له ان البنيوية عنده حركة علمية في مجالات معرفية اخرى غير الادب. فاين يكون موضع اللغة في هذا المتحف البنيوي هل هي لغة الصوت والكلام...ام هي لغة الكتابة المقروءة ام هي كما يعبر الباحث اشكالية الميتافيزيقيا اللغوية...؟ وان كنا نتحفظ كثيرا على تسمية ميتافيزيقيا اللغة ولم يوضح ما المقصود بذلك. فاللغة براينا رموز واشارات متفق على عقلانيتها سواء في الاساطير

والميثالوجيا والعقائد الدينية الخرافية. او جاءت هذه الرموز عبر الموروث المنجز للبشرية في المجالات البحثية كافة.وهي بعيدة تماما عن المجال الميتافيزيقي.

بالتاكيد ان تغليب لغة الصوت والكلام الشفافي في النقد الادبي وفي دراسات علم اللغة بعيدا عن اللغة المكتوبة في المنهج البنيوي النقدي لا يكفي.فقد يصبح النقد الادبي البنيوي المعتمد لغة الصوت والكلام يشبه كتابة – نوتة – موسيقية بعيدة عن معالجة اشكاليات الادب والنقد الثقافي. من هنا يمكننا طرح اهمية ما جاء به غولدمان في البنيوية التكوينية لحل هذا الاشكال الصعب.وذلك في تظافر المفاهيم الماركسية مع البحث التوليدي التوفيقي ولنا توضيح اكثر قادم. والادب يحتاج لغة كتابة ايضا في كل الاحوال ولا غنى عن ذلك. لذا نجد خروج البنيوية على الرموز الصوتية واللسانية التي لم تكن صالحة في التطبيق الانثروبولوجي لدى شتراوس ولا لدى لاكان في علم النفس البنيوي ولا لدى جاك دريدا او فوكو او التوسير في مباحث البنيوية في السرديات والانساق الايدولوجية الكبرى. ولا في المعارف والدراسات الفلسفية التي كانت قيد المراجعة والقراءات الجديدة للمنهج البنيوي.

ثانيا: التوسير والتنظير البنيوي في استهداف كتاب رأس المال

اشار الفيلسوف الماركسي المجري جورج لوكاتش قائلا: ان تنبيه ماركس كي لا نعتبر "هيجل" كلباً فاطساً، ظل حرفا ميتا للكثيرين من الماركسين الصالحين !!ثم جاء الفيلسوف الفرنسي "التوسير" متعكزاً على مثالية هيجل المتعفنة حسب اجتهاده في استهداف الماركسية في عمودها الفقري، كتاب رأس المال.

واعتمدنا في هذه المداخلة لافكار التوسير على كتاب الاستاذ محمد علي الكبسي قراءات في الفكر الفلسفي المعاصر، وترجمته لآراء التوسير عن الفرنسية الفصل الاول بعنوان: "التوسير ومنطق الاختلاف".كتاب رأس المال حسب التوسير لم يعد شيئا منتجا، بل حاملاً لمفعولات العلاقات باعتباره "بنية" فهو ابعد من ان يشير الى الواقع لانه منتج للواقع من خلال قوانينه[1].

ان مفهوم ومصطلح بنية ترد هنا عند التوسير، ان البنية هي حامل العلاقات المنفرزة والمنبثقة عن واقع معين، او فاعلية معينة، وليست "البنية" كما نتداولها في ادبيات ثقافتنا الفكرية السيسيولوجية انها تموضع اجتماعي في الواقع، فمرة يعتبر التوسير البنية هي علاقات الانتاج فقط، وفي ثانية يعتبر كتاب رأس المال مرادف البنية، كما مر بنا. ويعتبر كتاب رأس المال "بنية" معرفية لا علاقة لها بالواقع العيني.

التوسير لا يعترف بواقع عيني بدليل قوله" اذا كانت البنية هي الثابت الوحيد القابل للمعرفة باعتبارها علاقات انتاج، واذا كانت لا تتكون إلا خارج كل صلة مباشرة مع العيني، فهي اذن ليست ترجمانا للواقع بل انتاجاً يتحدد فقط من خلال التصورات والمناهج".

ويقول ايضا " الواقع ليس موجودا بل يتحول الى موجود والعملية الحقيقية، تتمثل في الممارسة النظرية، وهذا يعني ان هذه الاخيرة تعني تطورا لمجمل تاريخ المعارف،

---

(1) محمد علي الكبيسي عن التوسير L.Althusser : Ibed Tom , p.170

هذا التطور لا نبلغهُ إلا بالابتعاد عن الزوج (رأس المال/ تناقض)، لأن التناقض يجب فهمه نظريا على انه فعالية واسلوب تتمظهر فيه البنية ومن هنا جاءت ضرورة مصادرة الارث الهجيلي[1].محاولة التوسير بناء فلسفة مثالية ابتذالية يلصقها بالماركسية بادانته لها على اعتبار انها عاشت قرونا طويلة في وهم الايدويولوجيا والتقسيم الطبقي. وكيف يمكننا السير مع نظرية التوسير وافكاره التي ترى في البنية هي علاقات الانتاج فقط؟ متجنبا قوى الانتاج(الشغيلة) وسخريته من التناقض الطبقي وينكر ان تكون البنية التي هي حامل علاقة ان يكون لها اية صلة بالواقع العياني والمادي وتاكيد ذلك قول الاستاذ الكبسي (ان التوسير يسعى لجعل المادية التاريخية ممارسة نظرية-هكذا- وذلك عن طريق تحويل مواضيع المادية التاريخية وفصلها عن جدل الواقع العياني. وتحويلها من مجرد مواضيع عاكسة للواقع الى تصورات تنفصل عن الواقع.لانها تحولت الى منظومة مفهومية.) [2] يؤكد التوسير ايضا: "اما الافراد والبشر الواقعيون وكل فعالياتهم ليسوا سوى مشكلة زائفة تسربت من الارث الهيجلي، وهكذا يتأكد ان "البنية" وحدها تتمكن من العودة الى "الكلية" بصيغة علمية"[3].

لا يتسع المجال في مقالة ادراج فصل التوسير من كتاب الكبسي المشار له كاملا، لكن خرجت عنه بالانطباعات التالية دحضا لمقولاته التجريدية المعرفية المثالية:

- الفرد برأينا هو جملة علاقاته الاجتماعية، بضمنها بالتأكيد العلاقات الاقتصادية والثقافية وغيرها، وهي عبارة سبقت لماركس صحيحة وسليمة، أراد التوسير توظيفها تجريديا لصالح افكاره فأخطأ. ماركس لم يقل العلاقات الاجتماعية تسبق" الكينونة" أي تسبق الماهية والوجود وان البنية هي علاقات الانتاج فقط.
- لا وجود لعلاقات اجتماعية بدون مجتمع بشري، ولايمكن فصلهما او تجزأتهما، ولا إحلال احداهما محل الاخرى، او عوضا عنها في تناوب وظيفي استبدالي نظريا فقط. والعلاقات الاجتماعية تظهر في حيز الوجود البشري حصراً.
- يفهم التوسير ان علاقات الانتاج وحدها فقط هي المولدّة رأس المال، وليس التناقض الطبقي، او تطور هذا التناقض، وفي هذا يرغب التوسير الغاء جدل وحدة الشغيلة الاجتماعية مع علاقات الانتاج وملكية وسائل الانتاج وناتج رأس المال. وفي هذه التجزيئ الألغائي تنتفي الطموحات الاقتصادية الطبيعية المشروعة لامم وشعوب تكافح من اجل حياة افضل ينخرها التفاوت الطبقي المجحف.
- يلغي التوسير بجدية الجدل الديالكتيكي الهيجلي، وما بني عليه ماركسيا، معتبرا ان ما بني على خطأ هو الآخر خطأ ايضا، والعكس المثبوت تاريخيا فلسفيا، هو العكس الصحيح فان ما انجزه ماركس في فلسفته ماديا، لم يكن ليرى النور لولا

---

(1)المصدر السابقp.12132122

(2)المصدر السابق p.23

(3)المصدر السابقp.17 (4)المصدر السابقp.15

اسهامات "هيجل" المثالية التي اعتمدها ماركس بمنهج مادي محسن.واستخدم الجدل المادي والمادية التاريخية التطورية وكذلك التناقض والتقسيم الطبقي وكلها مرتكزات هيجلية.

- معلوم لأي من قرأ شيئا بسيطا عن الماركسية انه وجد فيها وفي ادبياتها المنوعة الكثيرة مسلمات قوانين طبيعية علمية، فهي تعمل في جدل علاقة الانسان والطبيعة باستقلالية عن ارادة الانسان، ويجد الانسان بعد اكتشافها وتسخيرها لصالحه انه من الصعوبة بمكان فرض دحضها والغائها والعبث بمعطياتها الانسانية التقدمية في مجرد افكار فلسفية صرف لا تعطي بديلا تطبيقيا مقبولا ولا رابط لها بالواقع المادي والانساني والاجتماعي.
- التوسير يريد بكل بساطة الغاء الصراع الطبقي من المجتمعات في العالم، وهو لايقرّها، ويعتبر علاقات الانتاج كمحمول نظري هي مولدة رأس المال وهي "بنية" تعويضية لكل مفردات المادية التاريخية يتوجب الاهتمام بها وحدها فقط بضوء تطورات علم المعرفة والفلسفة البنيوية.
- واذا نحن جارينا التوسير في تخريجاته المستمرة احداها قوله علاقات الانتاج تسبق الكينونة، هل يصبح من الممكن إلغاء حقيقة ان علاقات الانتاج هي جزء من وجود بشري فاعل سابق عليها مفروزة عنه، متأثرة ومؤثرة فيه، هي الكينونة!؟ ببساطة هي كينونة مجتمع انساني طبقي.العلاقات الانتاجية هي جزء عضوي منه، وتكوّن وحدة عضوية مع ملكية وسائل الانتاج ومن الرأس المال، وبدون هذا التكوين العضوي المتلاحم فلا يوجد علاقات انتاج أي (بنية) على حد ما يريد التوسير ويرغبه.
- من حق التوسير الاجتهاد لبناء فلسفي مثالي ابتذالي لا ينقص ولا يضيف للهيجلية، ولا للماركسية اللتين يدينهما شيئا. ولم يسعفه تفكيره التوسل السليم بمقولة ماركس. الفرد هو مجمل علاقاته الاجتماعية، ليس معقولا عن التوسير أنه لم يلحظ ان ماركس ميّز ولم يخلط مثله بين علاقات الانتاج التي هي كل شيء عند التوسير، وبين العلاقات الاجتماعية التي هي حصيلة وضع الفرد ووجوده اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا، سلوكيا..الخ، كذلك من غير المرجح ان ماركس في مقولته الفرد هو مجمل علاقاته الاجتماعية وكينونته كوجود انساني، والتي اراد التوسير استعمالها استبدالياً اثباتيا لنظريته انها "علاقات الانتاج" عكازاً بيده، ان تصلح استشهادا منطقيا مقبولا في سياق حديث التوسير بأن علاقات الانتاج هي "بنية" لمحمولات تسبق الكينونة، كأنما اراد ان يقول ويتجنى على ماركس انه اعتبر العلاقات الاجتماعية تسبق الكينونة. فلماذا بحسب رغبة التوسير لا تكون علاقات الانتاج الجزء منها أي من العلاقات الاجتماعية تسبق الكينونة،؟ وهو ما لم يقله ماركس ولا يجوز الخلط به، فعلاقات الانتاج ناتج وجود العلاقات الاجتماعية.
- يؤكد منظرو ما بعد الحداثة حتمية الصراع الطبقي واستمراه وعجز الآليات الاجتماعية من استيعاب التنوع الثقافي والتوفيق بين مصالح الفئات الاجتماعية

المختلفة وهوما يتنافى وينسخ كل مغالطات التوسير في الغاء التناقض الطبقي.وهذا التفاوت الطبقي شغال طالما هناك غني وفقير.

- يتحول اليقين حسب التوسير الى مجرد عملية او فكرة ناظمة لأن اليقين قابل للخطأ، هذه الواقعة العلمية التي لا تبغي اليقين والحقيقة إلا باعتبارهما مثلا اعلى –كلام التوسير الى هنا لا يشوبه اللبس- ولكن تكملة عبارته بالتالي تثير الشك والاستغراب لدينا اذ يعتبر الواقعية العلمية غير نسبية وهي تجتهد ان تعلمنا ان نقيض الحقيقة، ليس بالضرورة حقيقة بديلة مخالفة لها، أولما هو مقبول مبرهن عليه، بل هو "غياب الحقيقة تماما". بديل الحقيقة ليس حقيقة اخرى بل لاحقيقة. تلاعب لفظي بالتعبير اللغوي الخالي من الدلالة والتأويل بحسب الواقعية العلمية التي اشار لها وإيمانه بها فكيف يتسنى دحض حقيقة مبرهن عليها ببديل "غياب الحقيقة تماما على حد تعبير التوسير".

ثالثا: المنهج التفكيكي والحفر الاركيولوجي

مصطلح التفكيك مصطلح فلسفي استعاره جاك دريدا من فلسفة هيد جر واطلق على منهجه استراتيجية التفكيك اي تفكيك النص لاظهار انه عبارة عن مركب يتالف من عدد من النصوص [1].

فدريدا ينظر الى النص كما لو كان يتألف من خيوط مختلفة تتداخل مع بعضها البعض. والتفكيك خليق بان يكشف عن الطريقة التي امكن بها تركيب النص في اول الامر. للتفكيكية مفهوم خاص عند المفكر اراكون من حيث اعتمادها كمنهجية اساسية لمشروعه النقدي. ومن حيث ترتيبها التسلسلي في بنية او هندسة المنهج الذي اعتمده. والذي لم يكن اعتباطا بقدر ما كان ضرورة فكرية منهجية نقدية في رفع سقف بناء العقل الاسلامي.

ان مشروع نقد العقل الاسلامي كما يبلوره اراكون يتمحور حول هدفين: الاول تفكيك مناخ الفكر العربي الاسلامي. والثاني تفكيك مناخ الفكر الغربي. اما منهج المفكر محمد عابد الجابري فهو يقوم على نقد العقل العربي الاسلامي وليس الاسلامي فقط كما هو عند محمد اركون حيث يقول اني اجد بان تحرير الارض مرتبط بتحرير السماء ولذلك اعطيت الاولوية للتحرير الديني او الاصلاح الديني على بقية انواع التحرير الاخرى من سياسية واجتماعية واخلاقية.

الجابري يعتمد البنيوية التكوينية في قراءة الفلسفة العربية الاسلامية.قراءة واعية غير مزيفة يرى الجابري انه لابد من طرحها ايديولوجياً ليتمخض عنها اي عن هذا الطرح ما يطلق عليه الجابري –القطيعة الابستمولوجية – بين فلسفة المشرق العربي والتي هي في نظر الجابري فلسفة لاهوتية المعرفة والاتجاه. بسبب استغراقها في اشكالية التوفيق بين الدين والفلسفة. وان دمج الدين بالفلسفة عند فلاسفة المشرق العربي طغت عليها نزعة

(1) ميجان الرويلي ودكتور سعد البازعي دليل الناقد الادبي صفحة 108.

روحانية مثالية. جعلت القوى المتجهة الى المستقبل في المجتمع تعيش في الحلم ما اخفقت تحقيقه في الواقع.وبالتاكيد يأخذ الجابري بفلسفة ابن رشد في المغرب العربي[1].

الجابري يحدد ثلاث مرتكزات في اعتماده المنهج البنيوي الذي يعتبره قاصرا في تغليبه الجزئيات على الكل.المرتكزات هي نقد العقل العربي الذي يشمل التراث العربي الاسلامي برمته.وليس الاسلامي تحديدا كما هو الحال عند اراكون. واعتماده المعطيات الشغالة في الايديولوجيا العربية.وكذلك اجراء نقد مقارن بين نهضة اوربا وتحقيق النهضة العربية المطلوبة دونما تبعية او استنساخ عن الغرب.

رابعا: البنيوية التكوينية او البنيوية التوليدية

يعتبر لوسيان غولدمان وهو عالم اجتماع فرنسي روماني الاصل مؤسس هذا المنهج المعرفي الابستيمولوجي في علم الاجتماع. لكن النقد العربي الحديث وخاصة في المغرب العربي تلقف البنيوية التكوينية وتعامل مها بوصفها منهجا نقديا صرفا في نقد الشعر والرواية وقضاية الادب. دون العناية بالسياقات السسيولوجية التي نشأت وتطورت فيها هذه النظرية.[2]

وقد اعتمدت البنيوية التكوينية المنهج التوفيقي الذي يجمع بين ادبيات وافكار الجدل المادي والتاريخي في الفكر الماركسي وبين الابستيمولوجيا البنيوية التكوينية كما هي عند جان بياجيه باعتراف رائدها غولد مان الذي صرح علانية تاثره بفلسفة جان بياجيه ولا سيما استخدامه مصطلح البنيوية التكوينية. مؤكدا اننا عرفنا العلوم الانسانية الوضعية وبتحديد اكثر المنهج الماركسي بتعبير مماثل استعرناه علاوة على ذلك من جان بياجيه هو البنيوية التكوينية.[3]

كما اشرنا سابقا ان ابرز الذين تبنوا هذا المنهج التوفيقي في النقد الادبي والروائي هم المغاربة لقربهم من التثاقف الفرنسي وتعاملهم الثقافي مع اللغة الفرنسية الى جانب العربية وكتاباتهم باللغتين.

ويذكر الاستاذ جابر عصفور انه خلال الفترة الزمنية التي استمرت 16 عاما على ظهور نظرية غولدمان لم يترجم من مؤلفاته الى العربية شيئا. مقابل ترجمة 9 كتب له الى الانكليزية في مقدمتها كتابه (الاله الخفي). والكتابان اللذان ترجما لغولد مان الى العربية احدهما هو (مقدمات في سسيولوجيا الرواية) سنة 1993 ترجمة بدرالدين عرودكي الذي صدر بالفرنسية عام 1964 كما يعتبر الكتاب الثاني (دليل الناقد العربي) للباحثين د.ميجان الرويلي ود.سعد البازعي رائداً في المنهج البنيوي التكويني في مجال النقد الادبي العربي الحديث.

---

(1) وثاب آل جعفر– نقد العقل بين اراكون والجابري، ص431 رسالة دكتوراه وبتصرف منا –

(2)عبد الستار جبر-البنيوية التكوينية والنقد المغربي الحديث-مجلة الاقلام العراقية-ع2حزيران 2010ص203.

(3)المصد السابق نفس الصفحة.

وعن الظاهرة التوفيقية التي تعتبر ركيزة وعماد البنيوية التكوينية اصدر د.محمد جابر الانصاري كتابه الرائد في هذا المجال بعنوان (تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي 1930 – 1970) عالم المعرفة الكويت – تشرين ثان 1980.

ويشير الباحث عبد الستار جبر ان الانصاري الف كتابه هذا ليثبت ان ظاهرة التوفيقية هي التي تحكم وتوجه الفكر العربي المعاصر بل والقديم ايضا. فالانصاري يرى ان هذه الظاهرة تعود جذورها الى التوفيقية الاسلامية القديمة في مزاوجتها الدين والعقل في دراسة مختلف المؤثرات المتباينة المتعارضة التي هضمتها الحضارة العربية الاسلامية بعد ان قامت بعملية التوفيق بينهما.

ويقول عبد الستار جبر على لسان الانصاري ان الهدف من تاليفه الكتاب هو البرهنة على حقيقة كون هذه الروح التوفيقية نافذة الى صميم التكونات التاريخية المجتمعية الحضارية وانعكاساتها العقلية والشعورية في هذه المرحلة من التاريخ العربي. ص 224 من الكتاب.

ويضيف انه من الجدير بالذكر ان المفكر صادق جلال العظم الماركسي العلماني تناول ظاهرة التوفيقية في كتابه (نقد الفكر الديني) الذي اثار ضجة كبيرة وجدلا واسعا حوكم على أثرها المؤلف. والكتاب كما هو معلوم تحليل ماركسي توفيقي في معالجته اسباب نكسة حزيران 1967. ويقول د. سعد البازعي ود. ميجان الرويلي في كتابهما المشار له سابقا ان البنيوية التكوينية او التوليدية فرع من فروع البنيوية نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين للتوفيق بين طروحات البنيوية في صيغتها الشكلانية واسس الفكر الماركسي او الجدلي كما يسعى احيانا في تركيزه على التفسير المادي الواقعي للفكر والثقافة عموما.

كما يعتبر عبد الستار جبر التوفيقية البنيوية من عوامل استنبات البنيوية التكوينية في المغرب العربي تحديدا والوطن العربي عموما من حيث (ثمة نزعة توفيقية تحكم الفكر العربي المعاصر وتوجه طرائق تعامله مع الواقع وهي تشتد في الظروف التاريخية التي تضع هذا الفكر في صراع بين خيارين اما التمسك بالتراث او محاكاة الآخر الاقوى(الغرب) فتدفعه لانتاج صيغ توفيقية في قطاعاته المعرفية السياسة,الاجتماع,الاقتصاد,الادب.. الخ.) كما ان البنيوية التكوينية نفسها ليس بوصفها نظرية سسيولوجية لدراسة الادب فقط بل بوصفها تصورا علميا للحياة الانسانية.

ويؤكد عبد الستار جبر على لسان احد النقاد المغاربة الى ان النقد الادبي في المغرب العربي كان سباقا في توظيف البنيوية التكوينية شغوفا باصلاحاتها ومفاهيمها وتمكن بنوع من العدوى من ايصالها الى المشرق العربي حيث عرفت هناك انتشارا محدودا. والنزعة التوفيقية واضحة عند نقاد الادب المغاربة فهذا نجيب العوفي يقول:وأرى ان تفاعلا بين المنهج البنيوي الشكلاني والمنهج الواقعي الجدلي في اطار نظرية نقدية ناظمة وهي امكانية واردة يزكيها ويشجع عليها مشروع غولدمان.) [1]

(1) اعتمدنا في هذا التلخيص دراسة عبد الستار جبر بعنوان : البنيوية التكوينية والنقد المغربي الحديث – مجلة الاقلام العراقية – ع2 حزيران 2010 ص 201 .